الفكر في الحضارة الصينية القديمة: كونفوشيوس والكنفوشيوسية

1/ الفكر الصيني قبل كونفوشيوس:

الصين: من المجتمع البدائي إلى المجتمع العبودي:

تشير الحفريات إلى أن البدايات الأولى لأسلاف الصينيين تعود إلى مليون وسبعمئة سنة يعرف بانسان يوانمو الذي اكتشف في مقاطعة يونان، وعثر أيضا في مقاطعة شنشي بقايا انسان لانتيان تعود إلى 800 ألف سنة. ثم انسان بكين الذي يعود إلى 500 ألف سنة. ويشبه هذا الإنسان الأخير في شكله ملامح القرد. استخدم أدوات بسيطة من الحجر والخشب للصيد وهذا الاستعمال هو الذي بدأ يميزه عن الحيوان. كما عرف النار من خلال الغابات المحترقة بفعل الصواعق واستخدمها للإضاءة والتدفئة ومجابهة الحيوانات المفترسة. ومن أجل مجابهة مصاعب الحياة تعلم العيش في جماعات مكنته من تطوير لغة بسيطة للتواصل فيما بينهم. ومع مرور الوقت انتقل الإنسان الصيني البدائي من الإنسان القرد إلى الإنسان الحديث (العاقل) الذي طور العديد من المهارات مثل النحت والخياطة والتقشير والسلخ...إلخ وتعلم كيف يشعل النار ويطهو عليها.

هذا الانتقال من الإنسان القرد إلى العاقل أحدث أيضا انتقالا وتحولا في النسيج الاجتماعي فبعدما كان يجتمع بشكل عشوائي أصبح يجتمع بفعل رابطة الدم أو ما يعرف بـــ" المشترك العشائري". في البداية كان هذا التجمع أموميا (كان التجمع البشري على أساس الأم، تعدد الأنساب بتعدد الأمهات) وعرف في هذه المرحلة مكانة مهمة للمرأة في الحياة اليومية والانتاجية. عرف انسان هذه المرحلة الفأس والسكين والصيد بالصنارة وتربية الحيوانات من خنازير وكلاب وغنم ودجاج، كما عرف صنع الأوعية والزخرفة والكتابة وانتقل من العيش في الكهوف إلى بناء البيوت (أكواخ). وكانت هذه العشائر تشترك الأراضي والبيوت والمواشي والعمل والانتاج وكان جميع الأفراد متساوين ولا توجد فوارق اجتماعية بينهم (فقير وعني....) وساد هذا الوضع إلى غاية حدود 7000ق.م

مع تطور الزراعة وتربية المواشي انتقلت القيادة في الانتاج إلى الرجل وبذلك انتقلت رابطة الدم من المرأة إلى الأب. عرفت هذه المرحلة تطورات كبيرة في الحرف والمهن وتربية المواشي واستصلاح

الأراضي...إلخ وبدأت بعض الجماعات تتخصص في بعض الحرف والمنتوجات. ومع مرور الوقت بدأت تظهر الملكية الخاصة وبالمقابل تتراجع المساواة البدائية. فمع تطور الانتاج وظهور فائض الانتاج ظهرت معه دواعي استئثار هذا الفائض وهو الأمر الذي انعكس على الميل نحو امتلاك أدوات الزينة وتزيين القبور (الحفريات دلت على وجود زينة في بعض القبور وأخرى لا توجد). ومع مرور الوقت ظهرت الطبقية والصراع بين الطبقات. وأصبحت الملكية هي أساس السيطرة (الذي يمتلك يسيطر على الطبقات الأخرى) ومع مرور الوقت ظهرت أشرة شيا التي مثلت بداية الدولة في الصين وهي أسرة فرضت سيطرتها سنة 2100 ق م-1600 ق م. وعمل كبار العشائر على توسيع نفوذهم وثرواتهم فدفعوا بمواليهم من الأفراد إلى الحروب، ووجدوا أن النفع في استرقاق واستعباد الأسرى بدل قتلهم، وامتد الاستعباد إلى الفقراء أيضا واجبارهم على العمل لصالح أسيادهم وبذلك تأسس المجتمع العبودي.

مملكة "شيا" وظهور المجتمع العبودي:

تعود بدايات تشكل المجتمع الصيني القديم إلى أسرة شيا التي تعود إلى القرن الواحد والعشرين 21 ق م وتعد الأسرة المالكة الأولى في الصين. اتخذت في البداية النهر الأصفر كموطن لها، وتعد الزراعة أهم مصادرها ووظائفها (أن أغلب الحضارات القديمة كانت على ضفاف الأنهار.) من الناحية الاجتماعية كان المجتمع الذي حكمته أسرة شيا قائما على العبودية يتكون من طبقة الأسياد وطبقة العبيد. وحتى يحمي الأسياد ممتلكاتهم وضمان سيطرتهم على العبيد ابتكروا أجهزة قمعية وسنوا قوانين ردعية، ومن أجل الاحتماء من الغزاة شيدوا الأسوار. وكنتيجة للقهر الذي مارسته أسرت شيا المالكة على العبيد، وتدهور أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، تمردت هذه الطبقة الأخيرة وانتفضت ضدها. وكانت عشيرة شانغ على قرب من مملكة شيا تترصد هذه الاضطرابات لشن هجومها على ممكلة شيا. وحصل ذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد حيث بدأ عهد جديد في تاريخ ممالك الصين.

من الناحية السياسية عززت أسرة شانغ قوتها وسلطتها من خلال سن قوانين جديدة ردعية وبنت السجون وعززت من قوة الجيش، أما من الناحية الاقتصادية فقد طورت أساليب وتقنيات الزراعة، وهذا العمل الزراعي كان يقوم به العبيد لصالح فائدة الأسياد، كما كانوا يهتمون بتربية المواشي والخيول، ويتقنون بعض الحرف مثل صناعة الفخار، وصهر البرونز، وتمكنوا من بعض التقنيات المتعلقة بصناعة أدوات الطهي وبعض الأسلحة، كما حصلوا بعض المعارف حول الفلك والحساب والتقويم.

عموما كانت علاقة الأسياد بالعبيد في مملكة شانغ علاقة استغلال بشعة مبنية على القسوة والاضطهاد ومن مظاهر ذلك أن السيد يحق له قتل عبيده وتقديمهم كقرابين للآلهة عوض الحيوانات. وهذا ما يدل أن العبيد كانوا أقل درجة من الحيوانات ذاتها.

لم تدم مملكة أسرة شانغ التي ثارت على أسرة شيا طويلا فقد تعرضت بدورها لهجومات من طرف مملكة أخرى تدعى "تشو" الحقت بها شر هزيمة وكان ذلك في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد. كل ما نعرفه عن عائلة تشو يعود إلى المخطوطات التي تركتها مدونة في كتاب يسمى كتاب "الأغاني" الذي يضم مجموعة من القصائد الشعبية، وفيه نجد وصفا مفصلا للحياة الاجتماعية لملوك والعبيد في تلك المرحلة. لم تختلف ممارسات أسرة تشو تجاه العبيد على ما كانت عليه الممارسات مع الاسرة المالكة السابقة فقد واصلت قسوتها وبل بلغ الاضطهاد أعلى مستوياته. ففي القرن التاسع قبل الميلاد أصدر المالك تشو وانغ قرارا يمنع فيه العبيد من الصيد في الغابات والأنهار، وزرع جواسيس في كل مكان لرصد أنفاس المتمردين...ولما ضاق حال العبيد من هذه الممارسات القاسية ومن القرارات المجحفة ثاروا ضد السلطة الحاكمة فسقطت مملكة تشو في سنة 841 قبل الميلاد. بعد هذه الهزيمة انتقل حكم هذه المملكة إلى الضفة الشرقية وأقامت حكما جديدا أصبحت تعرف بعد ذلك بمملكة تشو الشرقية.

مملكة تشو الشرقية وانحلال المجتمع العبودي:

عرفت مملكة شتو الشرقية مرحلتين: مرحلة الربيع والخريف، ومرحلة الدويلات المتناحرة (770-476 ق م). إذا كان النظام الاجتماعي في المرحلة الأولى من المجتمع الصيني قائما على العبودية فإنه في مرحلة تشو الشرقية عرف هذا النظام تصدعات نتيجة تراجع سلطة الملك وتمرد الأمراء على سلطة الأسرة المالكة، حيث عرفت هذه المرحلة عمليات واسعة من استصلاح الأراضي باشرها العديد من الأمراء والأسياد، وأصبحت الأراضي المستصلحة ملكا لأسياد العبيد وليس للأسرة المالكة، فما كان من الأسرة المالكة سوى أن تصدر قرارا سنة 594 ق م ينص على دفع الضرائب على هذه الممتلكات (أي الأراضي)، وهذا القرار كان بمثابة اعتراف ضمني بحق الملكية في الصين الذي كان ممنوعا في السابق. الاعتراف بحق الملكية أثر على الوضع الاجتماعي للعبيد والرقيق، حيث تحول وضع هذه الفئة الأخيرة من العبيد إلى فلاحين ومزارعين تابعين لملاك الأراضي، وبذلك انتقل النظام الاجتماعي في الصين من المجتمع العبودي الأرستقراطي إلى المجتمع الاقطاعي.

أهم التصورات الدينية والفكرية للمجتمع الصيني القديم:

عرف المجتمع الصيني العديد من المعتقدات والتصورات الخرافية والأسطورية فقد عبد مظاهر الطبيعة وآمن بقوة البشر (الملوك) في توجيه مصائرهم، كما آمنوا بالإله شانغ دي shang Di الذي وظفته الأسر الحاكمة لبسط سيطرتها على العبيد (قاموا بتوظيف الدين لأغراض سياسية).

كما آمن الصينيون القدامى بأن تقديم القرابين للآلهة مهم جدا في حياتهم حيث أمنوا أن القرابين تؤثر مباشرة على زراعتهم وحروبهم وصيدهم وزواجهم وموتهم...ولكن مع مرور الوقت انتبه الصينيون إلى عدم جدوى هذه الآلهة في حياتهم نظرا للظلم الذي كانوا يتعرضون له من قبل الطبقة الحاكمة فلو كانت هذه الآلهة موجودة وتُأثر في حياتهم لعملت على تخليصهم من شرور الحكام والأسياد، وبذلك ظهرت بوادر الشك تجاه الآلهة لتتطور فيما بعد إلى عدم الايمان أصلا بها.